



إشكاليات النقد العربي المعاصر

قراءة في تجربة العجيمي النقدية

Issues in Contemporary Arab Criticism:
A Study of Al-Ajimi's Critical Experience

عبد الله عبان¹

¹جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي- تبسة (الجزائر)، abdallahabbane@univ-

tebessa.dz

ملخص:

تقدم هذه الورقة - ضمن اشتراطاتها المنهجية- تصورا معرفيا حول خطاب نقد الأدبي بوصفه معرفة ناجزة حول خطاب النقد، هذا التصور يحاول مساءلة إبستيمي نقد النقد وتحليل بياناته المعرفية نظرية ومفهوما، ويربطها بالمشروطيات الكبرى للعقل النقدي الغربي خاصة في انعطافته مابعد الحداثية، ثم ينتقل بنا هذا التصور إلى الانصات لتجربة الناقد التونسي محمد الناصر العجيمي خاصة في مؤلفه المهم: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، لنقدم من خلاله هذه الورقة مقتربا تأويليا لقراءته التي تمتلك حيزا معرفيا ومفهوميا مهما داخل المجال الثقافي العربي؛ إنها قراءة بارزة في ضوء هذا الحرج السوسيومعرفي الذي أنتج- في نظرنا- إرباكا مفهوميا كبيرا إثر استقبال المجال الثقافي العربي لهذا المحمول الغربي ومناهجه النقدية.

كلمات مفتاحية: نقد النقد الأدبي؛ مقرب تأويلي؛ الإبستيمي النقدي؛ المجال الثقافي العربي؛ النقد العربي المعاصر.

Summary:

This paper presents, within its methodological requirements, a cognitive perspective on the discourse of literary criticism as a completed knowledge of criticism itself. This perspective aims to interrogate the epistemology of literary criticism and analyze its theoretical and conceptual data,

المؤلف المرسل: عبد الله عبان، الإيميل: abdallahabbane@univ-tebessa.dz

linking it to the major conditions of Western critical thought, especially in its postmodern turn. The paper then shifts to listen to the experience of the Tunisian critic Mohamed Nasser Al-Ajimi, particularly in his important work: "Modern Arab Criticism and Western Critical Schools." Through this, we offer an interpretive approach to his readings, which possess significant cognitive and conceptual space within the Arab cultural sphere. It is a prominent reading in light of the socio-epistemic predicament that, in our view, has produced considerable conceptual confusion following the reception of this Western framework and its critical methodologies within the Arab cultural domain.

Keywords: Critique of literary criticism; Interpretive approach; Critical epistemology; Arab cultural sphere; Contemporary Arab criticism

1. مقدمة:

لا يعزب عن الدارس في مجال الدرس النقدي المعاصر ملاحظة تلك الانكسارات المعرفية التي حولت النموذج النقدي المعاصر، من نموذج تفسيري يعنى بوصف الظاهرة الأدبية انطلاقاً من الأوضاع السوسيوثقافية المحيطة بالمؤلف، إلى تحليل النص الأدبي تحليلاً علمياً ينطلق من الإستمولوجيا اللغوية المكونة له، وهي إستمولوجيا صارت تحتكم إلى مرجعيات جديدة انتقلت بالتفكير النقدي إلى مرحلة أكثر تعقيداً، وعليه، اضطلعت المقاربات الحدائية للنص الأدبي على منهجيات ذات دلالات فلسفية عميقة، حولت زاوية النظر إلى هذا النص، ونقلت النموذج النقدي المعاصر إلى مرحلة أساسية مهمة هي مرحلة التحليل اللغوي الصارم للعلامة اللسانية، فاستبعدت المقاربات الأخرى، واقتحمت على إثرها الدرس النقدي عوالم جديدة لا عهد له بها.

إننا لا نجد بداً من الاعتراف أن هذه المقاربات الجديدة قد خلصت النموذج النقدي المعاصر من رواسب باطولوجية كثيرة، أهمها استئثار المؤلف بعجينة النص، بحيث كان النظر إليه لا يخرج عن كونه وثيقة تاريخية أو بياناً لحادثة اجتماعية زائلة بزوال أسبابها، وعليه، فقد اغتنى الدرس النقدي المعاصر بهذا المنظور في مقارنة النصوص النقدية كذلك، على اعتبار من أن النصوص النقدية هي الأخرى تستجيب لبعض المقاربات الحدائية كالمقاربة التفكيكية والمقاربة التأويلية، انطلاقاً من طبيعة المحددات التي تفرضها هذه المقاربات، بالإضافة إلى خصوصية البنيات المعرفية والنقدية الخاصة بهذه النصوص والخطابات على تنوعها وتباينها.

تأسيساً على هذه الفرضية، تسعى ورقتنا المختصرة هذه إلى تقديم مساءلة أولية لمفهوم نقد النقد، ثم التعرّيج على الممارسة المهمة لهذا المفهوم في تصورنا عند الناقد

التونسي محمد الناصر العجيمي من خلال مؤلفه: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية؛ بحيث تأتي أسئلتها كالآتي:

- ما المقصود بنقد النقد؟ وما هي مرجعياته وبياناته الفلسفية؟

- هل يمكن أن يكون نقد النقد منهجا؟

- ما حجم الحيز المعرفي والمنهجي الذي تحتله قراءة العجيمي للمشاريع النقدية العربية؟

- ما هو النموذج النقدي يقدمه العجيمي في هذا الإطار؟

- ماهي أهم النتائج التي توصل إليها؟.

2. نقد النقد : بأية رؤية؟

تتأسس النظريات والمناهج على رؤى فكرية ومعرفية تدفع بها إلى حركة التداول والتأسيس، فحتاج بذلك إلى مفاهيم ومصطلحات تدخل في تركيبة النماذج النقدية المخصصة بها، ومن هذه المصطلحات نجد نقد النقد؛ حيث يشير الأستاذ محمد مريني مثلا إلى أن « هذا المصطلح حديث الميلاد نسبيا، صحيح، قد نجد من استعمله في الغرب منذ العقد السادس من القرن العشرين، لكنه كان استعمالا يطغى عليه الطابع العفوي، في غياب أي تأطير نظري »¹، وبما أنه كذلك، فلا نكاد نعثر على تحديد مصطلحي خاص بمفهوم نقد النقد، ذلك أنه مفهوم لا يتحدد بتعريف مباشر له، بل بمجموعة من الخصائص المحددة كما يرى بذلك محمد بوعزة، « ففي العملية الإنجازية يسعى إلى التعرف عللا الواقع النقدي، وذلك بتشخيص نوع المعرفة التي ينتجها ويؤسس عليها نظامه، بهدف تشخيص المشكلات الإبتيمولوجية التي تحاكي نظام معرفته، وتحد من فعاليته، هذا التشخيص هو الذي يبرر لنقد النقد الانتقال في مرحلة تشييدية ثانية، إلى العملية التنظيرية، حيث يفكر في بديل أفضل لذلك الواقع، وذلك باقتراح نماذج وحلول لمشكلات الواقع النقدي، تسعى إلى تعديل صيغة سابقة للممارسة النقدية أو اقتراح صيغة جديدة لها »². نستشف من خلال هذا التوصيف، أن الناقد المغربي محمد بوعزة يقر بأسبقية الجانب التطبيقي لنقد النقد على جانبه التنظيري، فهو مفهوم عملي بالدرجة الأولى يسعى إلى البحث في المشكلات النقدية لخطاب النقد كمرحلة أولى؛ هذه المرحلة التقنية تستوجب نجاعة الأداة النقدية والتحليلية لنقد النقد، وإلا تعذر بشكل كبير تشخيص مكامن التأزم

داخل خطاب النقد، غير أننا لا نتفق في هذا الصدد مع مقارنة بوعزة لهذا المفهوم، فنحن نرى أن الأداة النقدية تحركها معرفة، ومتى كانت تلك المعرفة ناجزة في أدواتها، كان ناتج الممارسة سليماً من الناحية المنهجية، معنى هذا؛ أن نقد النقد في تصورنا يجب أن يتأسس كنموذج نقدي منظم له حيزها الخاص، وإلا تعذر عليه تشخيص مشكلات الواقع النقدي، هذا لأن الأداة النقدية ليس بمقدورها تشخيص المشكلات النقدية والمعرفية تشخيصاً فعالاً إلا بالعودة إلى نظامها المحدد لدائرة اشتغالها، وإلا كانت المقارنة ضرباً من ضروب العشوائية التي لا يمكن التحكم في نتائجها.

نسعى في هذا الإطار إلى تخليص نقد النقد من التبعية لمناهج النقد المتعارف عليها، أو إلى نظرية ما، ذلك أن الأسئلة التي يطرحها، والمفاهيم التي ينجزها، تحتاج إلى اشتغال نقدي وتحليلي مخصوص، وهذا الاشتغال لا بد من تخطيطه انطلاقاً من طبيعة المعرفة التي يستند عليها نقد النقد كنموذج في القراءة. في هذا الصدد، يتفطن أحد الباحثين إلى «العلاقة بين نقد النقد والنقد، وهي علاقة تطرح بعض الالتباس من أن يصبح العلم مطابقاً لموضوعه (...)». إن هذين المجالين لا يمكن لهما أن يتماهيا تماهياً مطلقاً لا في الموضوع ولا في الأدوات المنهجية والإجرائية³، إن هذا الالتباس هو الذي جعل الكثير من المشتغلين بنقد النقد يعتقدون بعدم كفاية منجزه المعرفي والنقدي، وضرورة أن يستقل بنظرية جامعة ومخصصة، أو بمنهج محدد في الممارسة إن أمكن ذلك، والسبب في ذلك هو افتقاره إلى نموذج أساسي يحدد بدقة مرجعه النظري، وأدواته الإجرائية، والأهم من ذلك، التعالق المنهجي الذي يحكم بينهما..

3. العجبي ونماذج نقد النقد:

لعل اقترابنا من مؤلف العجبي يضعنا منذ الوهلة الأولى في لقاء مفتوح مع كم هائل من التحليلات التي تصب بأكملها باتجاه واحد ليبرر مشروعية طرحه، وإن من أهم الملاحظات التي قدمها الناقد في هذا الصدد هو حديثه عن موضوعية نقد النقد، حيث يناقش فكرة العلمية في الممارسة النقدية، ومدى إسهامها في بلورة خطاب نقدي ناجع مستقل عن الممارسات النقدية الضيقة لبعض النقاد، خطاب يتميز بجهد نظري متكامل، وأداة إجرائية ناجعة، لكنه يطالعنا في أول الكلام بإقرار مهم متعلق بفكرة الموضوعية، حيث يرى « أن الموضوعية التامة أمر يعز طلبه بل يكاد يكون في حكم المتعذر، فما تشهده صنوف المعرفة حديثاً من تنوع وتشعب يحملنا على الإقرار بأن الدارس المعني بمثل هذا

الموضوع يتحرك على أرضية رخوة كثيرة العقبات محفوفة بالمزالق»⁴. إن هذا الإقرار يجعلنا نتصور أن الدرس النقدي الحديث والمعاصر قد اخترقته نظريات ذات طبيعة معرفية بعيدة كل البعد عن صلب النموذج النقدي، بحيث بات من الصعب دمج صنوف عدة من المعرفة على اختلاف مادتها وتباين مرجعياتها في نموذج معرفي واحد، فالمعارف تختلف من حيث مصادرها وأدواتها وطبيعة القضايا والظواهر التي تحللها وتناقشها، لكن ورغم ذلك لا تتفق مع الناقد العجيمي في كون هذا الأمر صار مدعاة إلى الاعتراف المباشر بأنها «مهمة شاقة تشارف المجازفة»⁵.

مبدئياً، لا يمكن الجمع بين المعارف المتباينة في إطار منهج واحد، ونموذج معرفي محدد، غير أن مشاهدات موضوعية من صلب نظرية المعرفة المعاصرة قد يجبرنا على التراجع عن هذا الرأي بشكل نسبي، فالملاحظ أن هناك انفتاحاً كبيراً على فكرة البينيّات، وهي فكرة تشتغل في إطار محو الحدود الفاصلة بين مختلف المعارف والعلوم، وجعلها في فلك واحد من الاشتغال وإن اختلفت وتباينت في المصدر والمرجع، ولعبها زاوية جديدة لم يعرها العجيمي اهتماماً بالغاً حين تطرق إلى هذه الفكرة بالخصوص؛ ففكرة موت الحدود هذه من شأنها أن تخلص المشتغل بالدرس النقدي من الإكراهات الجسيمة التي يفرضها الولاء لمنهج مخصوص، وهي إكراهات تمارس سلطتها على دارس نقد النقد، وتضبطه بنسق مغلق من الاشتغال، وبأدوات محددة في الاستعمال، فصحيح أن العجيمي يعترف بشكل علني أن «العلاقة بين السيميائي والأسلوبي والبراجماتي والفلسفي والإيديولوجي والاجتماعي والنفسي تبدو من التداخل والالتباس بحيث أضحي من الصعب إدراك الفواصل القائمة بينها، وتبين ما ينتسب إلى هذا أو ما يشد إلى ذاك»⁶، لكن في الحقيقة ما الحاجة إلى إدراك هذه الفواصل القائمة بين المناهج والنظريات الآن؟ إن محاولة وضع فواصل بين هذه النظريات هو بمثابة إقرار بخصوصية مغلقة/ نهائية لكل نظرية في إطار علاقتها بنظرية أخرى، وهذا ما لا يمكن أن نقبل به، فالنظريات تشترك في معارف متداخلة، ورؤى غير ظاهرة، وتأويلات غير معلنة، وهناك معارف تتجاوز رقعة نظرية واحدة ومنهج واحد رغم اختلاف أدوات الاشتغال، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فالظاهرة النقدية المعاصرة أمست بحاجة ملحة إلى مناهج عدة لمقاربة التحولات الخطيرة التي تمس جسد النص/ المعرفة الواحدة، فهل يمكن مثلاً الفصل بين القراءة السيميائية للنص والقراءة التأويلية؟

إن الشرط الذي ننتصر له هاهنا هو مدى قدرة الدارس لخطاب النقد على التمييز الواعي بين المناهج، فإذا تحققت القدرة العلمية والمنهجية في ذلك، فإن أمر الاشتغال يبقى متحكما فيه أيضا، فالناقد المطلع بشكل كامل على مفاهيم النظرية السيميائية لا يعوزه أو يعجزه فهم النظرية التأويلية كذلك، ولعلنا نتفق مع العجيمي هنا في أن « تجاوز حضور الدارس في عملية البحث يأتي من جهة المراجعة المستديمة للنماذج الفكرية الحاضرة في الذهن واتهام الذات بالانحياز إلى قوالب فكرية جاهزة أو فرض وجهات نظر مسبقة »⁷، فليس على هذه الذات الوقوع في فخ المنهجية الصارمة التي تقصر الممارسة الواعية لخطاب النقد على أيديولوجية متحيزة، والسقوط تبعا لذلك في فخ الانحياز الفاضح لقوالها الفكرية، بل عليها بناء خطاب تأويلي يمكنها من تحقيق كفاءة معرفية ناجزة، وفعالة.

4. العجيمي والرصد التاريخي أو القراءة من الخارج:

لا نريد هنا أن نتهم ناقدنا الكبير بعدم خروج قراءته عن المنظور التاريخي المسيحي الذي يرصد ويسجل الممارسات النقدية بخطية قاتمة، وهي خطية في تصورنا لا تضيف شيئا إلى قراءة نقد النقد، فهذه القراءة لم تعد تنظر إلى الملاحظات التاريخية بنوع من الازعان، فالتاريخ لا يسلم من التحيزات والقراءات المغلوطة، لذلك، تأتي القراءات التاريخية في الغالب مشحونة بقراءات غير بريئة، لذلك، لا يمكن أن نقبض على علمية الخطاب النقدي بشكل معرفي متكامل إلا إذا تجاوزنا النظر التاريخي الذي يراكم المعرفة دون اعتبار لتمييزها واختلافها وتنوعها، ونحن نقر بهذا الرأي إثر ملاحظتنا على مؤلف العجيمي الذي تناول فيه نظرية النقد بالدراسة التاريخية، وقد استغرق في الحقيقة جزءا مهما من الكتاب في هذا الصدد، وهنا يتراءى لنا ميله إلى تقديم التطورات الحاصلة في نظرية النقد بشكل تسجيلي لا يضيف شيئا إلى جوهر الدراسة، وإذا كان هذا الأمر بدعوى العلمية، فالعلمية التي يدعمها المنهج التاريخي مجرد وهم، فحسب كارل بوبر فإنه « لا يمكن أن تقوم نظرية علمية في التطور التاريخي تصلح أن تكون أساسا للتنبؤ التاريخي »⁸، هذا لأن عملية التنبؤ في رأينا ليست ذا منحنى علمي، بل هي قائمة على احتمالات نسبية وافتراضات ليست يقينية، وإن قيمة الحادثة التاريخية في تحققها وليس في احتمال تحققها، حيث يبدو أن « المحاولات التي يبذلها التنبؤ لا يمكن أن تبلغ إلى نتيجتها إلا بعد حدوث هذه النتيجة »⁹، وعليه، فإننا بحاجة إلى منهجية مدققة لقراءة نظرية النقد قراءة علمية، ووضع اليد على أنساقها المشككة لها إبستيميا، ولعل هذا ما جعلنا نرفض المسح التسجيلي الذي

طالعنا به العجيمي، فهذا المسح لا ينفذ إلى بنية الخطاب ولا إلى خصائصه، ولا يلقي بالا إلى المرجعيات الفلسفية المتحكمة في إنتاجه نظريات النقد عموماً، ثم إن العامل الزمني الذي يركز عليه العجيمي خاصة ففي إطار حديثه عن تكون الكلمات داخل اللغة، لم يعد ذا أهمية كبرى في تصورنا؛ إذ يقول: «أمسى العامل الزمني ملابسا للغة وعاملاً مسهماً في تطويرها وجعلها أقدر على تمثيل الفكر بتثقيف آلة تعبيرها وإثراء تراكيبها ومعجمها»¹⁰. إن هذا العامل في تقديرنا لا تكمن أهميته إلا في دراسة اللغة دراسة تاريخية تعاقبية، فهو لم يضيف شيئاً إلى مفهوم اللغة كجوهر، وهذا ما نسجله على فترة كبيرة من الاستقبال العربي لنظريات النقد بهذا الفهم، إذ أدى هذا التفاعل السلبي إلى البقاء بعيداً عن التغيرات الطارئة التي حدثت في المفهوم الحديث للغة في المجال الثقافي الغربي، وهنا نتساءل: متى- مثلاً- كان الاستقبال الحقيقي لنظرية اللغة عند فرديناند دوسوسير؟

إننا نرى في هذه البحث أن استثمار الأركيولوجيا عامل مهم جداً في الحفر عن الأنساق المعرفية لنظرية النقد عند العرب، على اعتبار من أن هذه الآلية الفوكوية لا تشتغل كما يشتغل التاريخ، فهي مراجعاتية تأويلية تسعى إلى فضح وتعرية الأشكال الفكرية والثقافية التي تسلطت بفعل قراءة متحيزة تاريخياً، عكس التاريخ الذي يستمر في تقديم هذه القراءات على أنها القراءات الأنجع، والتي تبقى متعالية على الفهم والقراءة والتأويل.

5. خاتمة:

في خاتمة هذه الورقة، نسجل النتائج التالية:

- إن نقد النقد نشاط معرفي أكبر من أن يكون منهجاً مضبوطاً بآليات دقيقة، فهو محكوم بممارسات معرفية تسعى إلى الكشف عن الخصائص الأساسية للظاهرة النقدية، وذلك في إطار علاقتها بمرجعياتها، ومفاهيمها، وأنساقها.
- إن النقد العربي المعاصر لم يتحرر بعد من فكرة البناء الثنائي لنظامه المعرفي المفترض، فلا زالت ثنائيات من قمين: التراث/ الحداثة، الشكل/ المضمون، الداخل/ الخارج، الأنا/ الآخر... تغلف الممارسة المعرفية والمنهجية لدارسي النقد في ثقافتنا العربية.
- لم يخرج محمد الناصر العجيمي في مؤلفه هذا عن مفهوم المسح التاريخي الذي لا ينفذ إلى بنية الخطاب النقدي مرجحاً ومنهجاً، وهذا ليس إنقاصاً من جهد الرجل، فلتجربته الكثير من الحضور في ثقافتنا العربية المعاصرة، ولها سياقاتها التي تحتفي بها.

- إننا بحاجة إلى آليات مرنة في قراءة الآخر قراءة سليمة من الناحية المنهجية، وليس بمقدورنا بناء منهج نقدي مخصص إلا بالعودة إلى قراءة الذات قراءة تأويلية تحررها من قبضة القوالب الفكرية الجاهزة سواء في ثقافتنا الموروثة، أو في الثقافات الوافدة.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1: محمد مريني، نقد النقد: في المفهوم والمقاربة المنهجية، مجلة علامات في النقد، جدة، م 16، ع 64، فبراير 2008، ص 38.
- 2: محمد بوعزة، نقد النقد.. جدلية النظرية والممارسة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جدة، ع 169 (يوليو- سبتمبر 2016)، ص 124.
- 3: محمد مريني، نقد النقد: في المفهوم والمقاربة المنهجية، مجلة علامات في النقد، ص 41.
- 4: محمد الناصر العجيمي: النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية: دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع- صفاقس وكلية الآداب والعلوم الإنسانية- سوسة، ط 1، ديسمبر 1998، ص 05.
- 5: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 6: المصدر السابق، ص 05.
- 7: المصدر نفسه، ص 12.
- 8: كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي (دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية)، تر: عبد الحميد صبره، دار المعارف، الإسكندرية، 1959، ط 1، ص 12.
- 9: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 10: محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية، ص 45.

7. قائمة مراجع البحث:

- 1- محمد الناصر العجيمي، النقد العربي الحديث ومدارس النقد الغربية: دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع- صفاقس وكلية الآداب والعلوم الإنسانية- سوسة، ط 1، ديسمبر، 1998.
- 2- كارل بوبر، عقم المذهب التاريخي (دراسة في مناهج العلوم الاجتماعية)، تر: عبد الحميد صبره، دار المعارف، الاسكندرية، ط 1، 1959.
- 3- محمد بوعزة، نقد النقد.. جدلية النظرية والممارسة، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جدة، ع 169 (يوليو- سبتمبر 2016).
- 4- محمد مريني، نقد النقد: في المفهوم والمقاربة المنهجية، مجلة علامات في النقد، جدة، م 16، ع 64، فبراير 2008.